

تحديد بوصلة الدّعاء



الدّعاء حاجة فطرية عند الإنسان، فرداً وجماعة، هو جزءٌ من الحياة، ومن دورتها، فنحن ندعوه أَعْزَّ وجْلَ في الليل أو النهار، وفي أيِّ سَاعَةٍ نرِيدُ، ولا نحتاج إلى مقدَّماتٍ أو تمهيدٍ. يكفي أن ترفع يديك وتتنفس وجهك ثم تفتح الخطَّ مع المولى تعالى، هو هذا الحبل الممدود بينك وبين عباده، والذي لا ينقطع أبداً. والدّعاء دائمًا له هدف وغاية، ولا فرق بين حاجةٍ صغيرةٍ تطلبها، وتريجُون أن يتحققَ لها لك، أو حاجة كبيرة. الدّعاء عبادة خالصة، ولو لم يكن فيها مصلحة للإنسان، لما فتح الله هذا الباب من أبواب رحمته، لذلك دعاك الله إلى أن نسأله ونلتجأ إليه سبحانه في الشدة والرّحاء، في الخوف والأمن، وفي العسر واليسر، وفي حديث قديسي، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عَبْدِي تَعْرَفُ إِلَيْهِ فِي الرَّحَاءِ أَعْرَفُكَ فِي الشَّدَّةِ». الدّعاء عبادة، علاقة، مُناجاً، جوهر الدّعاء أَنْهُ عبادة كباقي العبادات، بل هو مُخَّ العبادة، كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم: «الدّعاء مُخَّ العبادة»، لكن من دون طقوسٍ ولا موافقيت.

جاء في الذكر الحكيم: (وَإِذَا سَأَلَكَ عَبْدَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعَوَةَ الدّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلَيْسْ تَجِيدُوا لِمَ يَلْبِي مَنْدُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) (البقرة/186). إنَّها دعوة الله إلى عبده أن يستجيب له، فيدعوه إلى أنَّ في ذلك خلاصاً له من كل سوء أو شدة، وتحررَ رأًّا من كل عبودية لغير الله، عندما يشعر بأنَّ الله هو ولِي حاجته، فمنه الفرج لكل شدة، وبه الخلاص من كل سوء، وهو - لا غيره - مالك الدنيا والآخرة، وولي الحياة والموت، وببيده مقاييس الأمور، وذلك هو سبيله للشعور بالأمن والطمأنينة والاستقرار، حين يشعر بأنَّ حاجاته الصعبة هي في دائرة رحمة القادر على قضائها، والعالم بما يصلحه أو يفسده منها... وهي في الوقت نفسه دعوة إلى الإيمان به، لأنَّه الحقيقة الواضحة التي لا يحتاج الإنسان في وعيها وفي الإيمان بها، إلى مزيدٍ من الفكر والتأمِّل والمعاناة؛ بل يلتقي بها في كل شيء يعيش معه، وفي كل طاهرة من ظواهر الوجود، وفي الحالين معاً؛ في الدّعاء عندما ينطلق، وفي الإيمان عندما يتحرّك الرشد - كل الرشد - في الواقع الحياة وفي حركتها الصاعدة أبداً إلى الله.

الدّعاء - بعد ذلك كلَّه - عبادة تهزُّ أعماق الإنسان بالشعور بوجود الله وحضوره في كل ملتقى

للإنسان، في ما يهمّه من أمور الحياة، وفي ما يثيره من شؤون الآخرة. وهي عبادة لا تُفرَّض عليه كلماتها وأجواؤها من خارج ذاته، من خلال تعليمات مفروضة، بل هي مشاعره وأفكاره وحاجاته وآلامه وآماله وكلماته المنطلقة من ذاته، في أسلوبٍ عفويٍ محبّبٍ، في جوٍ حميمٍ يفقد معه الشعور بالفواصل التي تفصله عن الله، بما تمثّله علاقة العبد بالسيّد، أو علاقة المخلوق بخالقه؛ بل هو الجوّ الذي يحسّ فيه بالانفتاح والامتداد في أجواء المطلق. وتلك هي السعادة، كلّ السعادة، والروحية الفيّاضة بالذُّور والعلتر والحياة. الدُّعاء عبادة الإنسان التي تتحرّك معها حياته كلّها بين يدي الله، في شعور بالمحبّة الذاتية الحالمة التي لا يعرف روعتها إلّا المخلصون من عباد الله.

والملحوظ أنّ معظم الأدعية في القرآن الكريم جاءت بصيغة الجمع، وهي بمثابة دعوة صريحة لجعل هذا النوع من الدُّعاء سلوكاً عاماً بين المسلمين، والنتيجة واضحة وبعيدةٌ معرفة: الدُّعاء يتحول إلى وسيلةٍ لشدِّ الروابط داخل المجتمع الإسلامي، باعتباره مجتمع تكافل وتعاون، وتحابب. حين تزاح في دعائك بين هموم الدنيا من حولك وهموم مجتمعك وهموم آخرتك، فهذا يعني أنّ بوصيلتك لم تنحرف، فهدفك وجه الله، ولا وجه غيره، فإن دعوت، فمن موقع عبوديّتك وفقرك و حاجتك إلى رحمة الله ورأفتة وحنا نه. نعم، في ساحة الدُّعاء، نمارس عبوديّتنا بحرّية كاملة، وباختيار واعٍ، تدفع بروحك وصوتك في معارج ملوكوت الله، فتصبح جزءاً من منظومة كونيةٍ تُسنج الخالق وتمجدّه.